رواية

جريمة حُبّ غامضة

سامي معروف

الورقة الأولى

العقل لا يستطيعُ أن يتحكَّمَ بالقلب،
ولكنّه يُصبحُ شريكًا له.. فقط في الجَريمَة!

ميشال مكلافلن

أنتَ مُجَرَّد شَخص بالنِّسبَةِ إلى العالم،
لكنَّكَ بالنِّسبةِ إلى شَخصٍ ما.. قد تكونُ العالمَ كلَّه.

براندي ساينذر

الحُبّ!

مُصْطلحٌ مُثقلٌ بالدَّلالات.. كثيفٌ في التَّلميحاتِ والمُوحِيات.

الحُبّ.. يا لها مُفرَدَةً مُخيفَةً.. مُرعبَة!

هي مُخيفةٌ في جاذبيَّتِها وتأثيرِها، ومُرْعِبةٌ في كثرَةِ ضَحاياها. وهيَ الجَحيمُ المَنشود والفردَوسُ المفقود. هي القيودُ المُذهَّبَة واللذَّةُ القاهرَة. إنَّها الأسْرُ الفاخرُ الوَثير والحُريَّةُ التّائهَة.

الحُبُّ.. يا لها من تَعويذة! أو هي مَفهوم.. أتُراها نظريَّة.. أم انَّها الحَياة؟ لعمري إنَّها حَفيدةٌ أميرَةٌ لإله!! لقد حيَّرَ الحُبُّ العقولَ وأتاهَ القلوب. وألهَمَ الشُّعراءَ آلافَ القصائدِ

والدَّواوين، وحلَّلَ فيهِ الفلاسفةُ مُصنَّفاتٍ لا تُحصَى ولا تُعَدّ. تغَنَّى بهِ بدَويُّ الصَّحراء في موسيقى نايَاتِه، وعُلِّقَتْ زَيتِيَّاتُه على جُدُرِ الصَّالوناتِ في الابنيَةِ العَصريَّةِ وناطحاتِ السَّحاب. لقد ذاقَ الكثيرُونَ جَحيمَ الحُبّ، فيما دَخلَ آخرونَ إلى رَدْهاتِ نَعِيمِه. وإذا كانَ قد بَجَّلَ الحُبَّ بعضُهُم فأقامَ له النُّصُبَ والتَّمَاثيل، فقد نعَتَهُ الكثيرون بالسَّارقِ الوَقِحِ الجَريءِ الذي يتسلَّلُ إلى الحَياةِ بلا استئذانٍ ليَخطفَ القلوبَ والأحلامَ والشَّباب.. وربَّما.. قطعةً كبيرةً منَ العُمر.

لقد ساقَ جَبَرُوتُ الحُبِّ إلى "ملكوتِ" سَبيهِ العَجيبِ الرِّجالَ معَ النِّساء، الأغنياءَ بجانبِ الفقراء، المثقّفينَ حَدَّ الجُهَلاء، العباقرةَ والبُسَطاء، السَّاسَةَ وكذا العامَّة، العُلماءَ ومعَهُم الفنَّانينَ والشُّعَراء أيضًا. حتى أنَّ المَجانينَ لم يستطيعوا أن يُنقذوا أنفسَهم من سُلطانِ إمبراطوريَّتِهِ الخُرافيَّة. وأفضلُ مَن وصفَ الحُبَّ همُ المَجانين، وأجمَلُ قولٍ في الحُبِّ قالهُ عاشقٌ مَجنونٌ رسَمَتْ لوحةَ جُنونِهِ ريشةُ حُسْنِ ليلاه. وبئسَ القائلُ أنَّ الحُبَّ أعمَى.. والعكسُ هو الصَّحيح.. لأنَّ العاشقَ يرى في مَحبوبِهِ ما لا يراهُ الآخرون.

وهنا وَجْهٌ من وُجوهِ الحُبِّ الدَّامعَة.. بلِ الدّاميَة.

ومعَ أنَّ الحُبَّ، فِقهيًّا، يجبُ أن يعنيَ التَّحابُبَ والتّقاربَ والانجذابَ وصولاً إلى الاتِّحاد. إلاَّ أنَّه، عمَليًّا وفي غالبِ الأحيان، وبحسَبِ الشّاعرِ الفرنسيّ لويس آراغون الذي قالَ بأنَّ الحُبَّ السَّعيدَ غيرُ مَوجود، يُنتِجُ التَّنَابذَ والتَّحاقدَ والانتقام، كما في حكايتِنا، ليُفْضِيَ في نهايةِ المَطاف إلى "تَصْفيَةٍ كاملةٍ" لنَفسِهِ.. إلى الجَريْمَة!

*****

لندن أيلول ٢٠١٦.

كان الكورنيش العَريض المُحاذِي للبَحر هادئًا هدُوْءَ صَفحَةِ الماء.. والصَّباحُ تُطرِّزُ تلاوينَه المُنعشَة وَكوكَاتُ طيُورِ القطرس وَصَفقاتُ أجنحتِها الكبيرَة، بحَيثُ أنَّها تعزفُ بانسجامٍ تامّ معَ إيقاعِ حَدَلاتِ الأمواجِ اللّطيفةِ فوقَ حَصى الشّاطئِ النّاعم. الكْيُوسْك

المَعدِنيُّ المُزخرَفُ ذو النَّوافذِ الزُّجاجيَّة يَلفُّ الشَّجَرَة، والصُّحُفُ الملوَّنةُ الكثيرَة مَدرُوزة على جَوانبِهِ الأربَعَة، فبَدا للنّاظر أنَّ الشَّجَرَة مغروسة في إناءٍ عِمْلاقٍ مُزَركش بأوراقِ المجلاَّتِ والصُّحف. السَيَّاراتُ العابرَة قليلة، والدَرَّاجون يمارسون هوايتَهم الصَّباحيَّة، وثمَّة حَسناءُ شَقراء كانت تهرولُ وسَمَّاعَتا الآيفون في أذنَيها.

"هل تستطيعُ أن تُعيرَني من وَقتِكَ.. لحَديثٍ هادئٍ طويل أيُّها المُحَقِّق؟"

كلماتٌ مُفاجئَة من وافدٍ جريء! ولكنَّه ليسَ دَخيلاً على عالم المُحقِّق الصّاخب. أعادَ المُحَقِّق قراءَةَ الجُملةِ ثانية، وقرأَ أيضًا اسمَ المُرسِل: صَخر سويدان.. فَقوَّسَتِ الدَّهشةُ حَاجبَيْهِ المُسَطَّحين، وجَحَظَتْ عَيناه! ثمَّ راحَ يتأمَّلُ ملامِحَ الشَّخصيَّةِ الجذّابةِ في الصّورةِ الصّغيرة في أعلى شاشةِ الموبايل، حيث نقرَ بإصبَعِهِ وكبَّرَها. كانَ واضِحًا أنَّ الرَّجُلَ أربَعينِيّ، وذو هيبَةٍ مُؤيَّدَة بعَينين ثاقبتَين مُفعمَتَينِ بالعُجْبِ والحِنكة.

إنّها رسالة في تطبيق الواتسآب من صَخر سويدان إلى المُحَقِّق شَكيب مْدَوَّر. كلماتٌ وامضَة غامضَة، غيرُ مَشكولةٍ بتعليقٍ أو تفسيرٍ يُذيِّلُها، قرأَ فيها المُحَقِّقُ لُغزًا جديدًا! فسَالَ عليها لُعابُ عقلِهِ النّشيط، وضَعُفَت شَهوتُهُ العِلميَّةُ إزاءَ تلميحاتِ إغواآتِها المُثيرَة. حَديثٌ هادئٌ.. وَطويل! وهذه الجُملة القصيرة في مُختصَرِ مُفيدِها.. إن هي إلاّ صندوقة أخبارٍ عَذراءَ بالنِّسبَةِ لإحداثيَّاتِ الفضوليَّةِ النَّهمَة التي تتميَّزُ بها تركيبةُ مزاجيَّةِ المُحقِّقين عادة. وماذا يُريدُ المُحقِّقُ غيرَ الأخبار.. المَعلومات.. الأسماء.. الأرقام.. الحَيثيَّات.. الاستِنتاجات.. الأدلّة.. إنَّها أدواتُ اللُّعبة، بل هيَ الكمائنُ المتناثرَة في كلِّ مكان، فوقَ بقاعٍ وأزمنةٍ مترامية، يَجمَعُها المُحقِّقون بفِكرٍ عنيدٍ ذكيّ، تمامًا مثل قِطَع لوحَةِ اللُّغز، فيُوقِعوا بطريدتِهم المُتوارية خلفَ حُجُبِ الغرور، ليَصنعوا منها في نهايةِ المَطاف لوحة تحَرِّياتِهم واكتشافاتِهم المُذهلة.

يَملكُ رجالُ القانون والمُهندسون والصِّحافيّون ذاكرةً فعّالة.. من حيث المبدأ. ولكنَّ للمُحقِّقين ذاكرةً خلاّقة! بحيث تتقاربُ المادَّة التي جذبَها مغناطيسُ أدمِغتِهم قرائنَ

وفهارسَ ومُتشابهاتٍ في مجموعات، فيَسهُل عندئذٍ الرُّجوعُ إليها عندَ الحاجة، ويَسهلُ أن تنضَمَّ إليها قرائِنُ جديدة من الخارج، كلاًّ في مَجموعتِها. إنّها المَوهبَة!

كانتِ الشّمسُ قد استيقظَتْ حتى نصفِ قرصِها من وراءَ الأفق الشَّرقِيّ، ذاتَ صباحٍ هادئٍ في نهايةِ الصَّيف. ويَطيرُ ظلُّها فوقَ صفحةِ الماءِ السّاكنِ كذيلِ الطّائرةِ الوَرَقيَّةِ السّابحَةِ في القبَّةِ الزَّرقاء، مُتَّجِهًا مباشرةً، كأنَّهُ، نحوَ المُحقِّق الذي كانَ يمارسُ رياضَةَ المشي على الكورنيش البَحريِّ القريبِ منَ الأحياءِ القديمةِ في مدينة دوفر Dover، في بُقعةٍ ما من السّاحِلِ الجَنوبيِّ الشَّرقيّ للجُزُر البَريطانيَّة. توقَّفَ.. قرأ الرِّسالة.. نظرَ عميقًا في هيئَةِ صَخر سويدان.. فكَّرَ لدَقيقتين.. ثمَّ تابعَ المشي والموبايل في يدِه اليُمنى. وما إن خَطا حوالي عشرين خَطوة.. توقّفَ ثانية.. قرَّبَ الموبايل من فمِهِ وأجابَ برسالةٍ صَوتيَّة، كأنَّهُ لا يَعرفُ الرَّجُل:

– أنا منفتِحٌ على كلِّ جَديدٍ ومُفيد.

وعادَ فتابعَ المَشي.

وما هي إلاّ دقائِق قليلة حتى جاءَهُ الرَدُّ من صَخر سويدان:

– حدِّدِ المكانَ والزَّمان يا سيِّدي الكريم. أنا هنا في لندن.

فهَزَّتِ الدَّهشةُ المُحقِّقَ ثانية، وسَمَّرَته في مكانِهِ. ثمَّ هاتفَ مُحدِّثَهُ مباشَرَة على الخَطّ:

– مرحبا يا سيِّد صَخر سويدان. ألن تعرِّفَني بكامل هُويَّتِكَ وتقولَ لي ما هو موضوع حَديثِك؟

فسمِعَ على الخَطّ صَوتًا رُجُوليًّا عميقًا، بطيءَ النَّبرَةِ، حادَّ المقاطِع والحروف:

– سأخبرُكَ بكلِّ شَيء صدِّقني.. وبالتّفصيلِ المُمِلّ.. ولكن على فنجانِ قهوةٍ وسيكارة وجلسةٍ رائقة.

فبلغَتِ الدَّهشَةُ ذروتَها في عقلِ شَكيب مْدَوَّر. وَسَأله:

– هلِ الموضوع هامّ لهذه الدَّرَجَة يا سيِّد صَخر؟

أجابَ صَخر:

– لو لم يكنِ المَوضوع هامًّا لما سَعَيتُ وراءَك.. وهنا في لندن.

قالَ المُحَقِّق:

– حسنًا.. نلتقي في لندن.. أم انّكَ ستأتي إلى هنا؟

– أين.. ألستَ في لندن؟! سألَ صَخر.

– لا بأس.. دَعكَ من مكاني الآن. سوفَ نلتقي في لندن السَّبت مساءً، في مَقهًى منَ المَقاهي اللّطيفةِ على ضفافِ التايمز، وفي نقطةٍ قريبَةٍ من مكان إقامتِك.

وهكذا اتَّفقَ الرَّجُلانِ على مكان وزمانِ لقاءٍ بينهما: كتابٍ مُشوِّقٍ بالنِّسبةِ إلى المُحقِّق شَكيب، ومَعركَةٍ مَصيريَّة.. ربَّما.. بالنِّسبةِ لصَخر سويدان.

وَفي مَساءِ السَّبت.. خرَجَ المُحقِّق من غرفتِهِ في الفندق قبلَ ساعةٍ ونصفِ السّاعة من المَوعِد المُحدَّد وفي يدِهِ مجلَّة، واستقلَّ سيّارة تاكسي إلى ذلكَ المقهى العَصريّ ذي الدّيكورات الفانتازيَّة، والمُشرفِ على نهر التّايمز السّاحِر. طلبَ فنجانَ القهوة وأشعلَ اللُفافة وشرَعَ يقرأ في مجلَّتِهِ. كان عدَدُ الزَّبائنِ لا يتجاوزُ عددَ أصابعِ اليَدَين، معَ كونِهِ مساءَ السَّبت! والمَقهى هدوئيُّ الأجواء، لا يرتادُه غيرُ المُثقَّفين والصِّحافيِّين. كانت موسيقى البّوب القديمَة السّابحَة في رحابِ المكان مؤثِّرًا سَمَعيًّا آخر إلى جانبِ المُزَخرَفات، وتعويذةً تستحضرُ العَبقريّاتِ الدَّفينَة في ذواتِ المواهبِ الوافدَةِ إلى هذا الجوَاءِ الشَّاعريِّ النَّفحَات.

كانَ صَيفُ المُحقِّق شكيب مْدَوَّر في بيروت صاخبًا جدًّا ولاهبًا! العملُ لا بداية له ولا نهاية، المُطاردات لا تنتهي والتَحرِّيات ترهقُ الجَسدَ والعقلَ في آنٍ معًا. العصابات تنبُتُ من سِحرٍ هنا وشَعوَذَةٍ هناك، وتنتشرُ كما الطّحالبُ التي تُصنِّعُ الأوكسجينَ من ذاتِها، وتعتمدُ على نفسِها في تكوين غذائِها. والأجيالُ في الشَّرق لا تعرفُ أن تثورَ أو

تحتجَّ بطريقةٍ حَضاريَّة.. هي مقتنِعَة بأنَّ لا سلاحَ يُجدي غيرُ العقيدَةِ والعنف! إنَّ للاحتجاج الحَضاريّ إسقاطاتٍ مُثمرةً في الإداراتِ الحديثةِ المنظَّمَة.. ولكنّ الإدارَةَ المُتخلِّفَة المُهترئَة، بحسَبِ الأجيال الطّالعَة، لا علاجَ لها إلاّ بالجِراحَة. كانتِ العمليَّاتُ والمُداهمات تشبه زَحمةَ السَّير الخانقة عندَ مداخل العاصمَة. وفي مُعظمِها يُستخدمُ السِّلاحُ ويَحدُثُ تراشق ناريّ. لقد ماتَ في ١٣ حزيران منَ العامِ نفسِهِ أحدُ العَساكر بينَ يدَي المُحقِّق في إحدى المُداهمات، وأصيبَ هو بجُرحٍ طفيف في ساقِه، وتوفِّيَ في شَهرِ تمُّوز أخوهُ الدَّرَكيُّ النّقيب في سَكتةٍ قلبيَّة، فكانَ الصَّيفُ حافلاً بحَرِّهِ وحَرَكتِهِ وحُزنِه.. ليَنتَهيَ بهِ المَطاف في إنكلترا "مُنافسًا لجيمس بوند" في سُرعةِ أدائِهِ، ومرونتِهِ أمامَ العَقبات. لقد كانت كلماتُ المُحقِّق على الهاتف للشَابّ صَخر أداءً تمثيليًّا بارعًا! هو يعرفُ صَخر.. ومَن يكون صَخر سويدان.. ومن هو "والد" صَخر سويدان. وهو أيضًا يُحَوِّمُ حولَه منذ مدّةٍ كالكواسِر فوقَ الجثَّة، والشّكوكُ الكثيرةُ تثقِلُ ذهنَه. لقد سافرَ إلى إنكلترا لأسبوعَين في مَهمَّةٍ استخباراتيَّة، وآخِرُ ما يُمكنُ أن يَخطرَ لبالِهِ أن تلحَقَ بهِ طريدَتُه إلى هناك! هذا بالنِّسبَةِ إلى المُحقّق. أمّا القضيَّة عندَ صَخر سويدان.. فهو يَتحيَّنُ الفرصَة أيضًا، ومنذ زَمَن، للقاءٍ مَفصَليٍّ معَ المُحَقِّق شَكيب، شَبيهٍ بلقاءِ التّائب والكاهن داخلَ كرسِيّ الاعتراف. كانَ صَخر قد جاءَ لقضاءِ شَهرين من الزَّمان عندَ بعض الأصدقاء في لندن، على أن يَرجعَ باكرًا ليُعيِّدَ الميلاد ورأسَ السَّنة في بيروت. ولكنَّ صديقًا في بيروت أخبرَه بأنّ المُحقِّقَ شَكيب مْدَوَّر في لندن لمَهمَّةٍ لن تتجاوزَ الاسبوعَين.. فوَجَدَها صَخر فرصةً مناسبة.. لو كانت هي كذلكَ.. لفَضفَضَةٍ عن حِكايةٍ.. أو بَوْحٍ أسيرٍ في ذاكرةٍ ثائِرَةٍ، كما المَعنى في الوَزْنِ والقافيَة! لن يَخلُصَ من عذابِهِ المُزمنِ بغير الخُروج إلى الحُريَّة.

كانَ الاتِّفاقُ بينهما في الأساس على فنجان قهوة.. ففضَّلَ صَخر أن يتناولَ القليلَ من الطّعام على أنّه وجبة عِشاء طفيفة. فإذا عَزَما في المَقهى أن يتعشَّيا سويّة.. يكون هو قادراً على تناول بعض الطّعام. ثمَّ غادَرَ الشُقَّةَ التي هو نازلٌ فيها، وهي بَيتُ أحَدِ أصدقائِهِ في لندن، واستقلَّ سيَّارَةَ التاكسي، لكي لا يتأخَّرَ، إلى الشّارع المُحاذي للمَقهى. وأوصلَهُ السّائِقُ إلى المَكانِ المُعَيَّن، فنزلَ صَخر، ومشى حوالي خمسين مترًا في زقاقٍ

قديم الطِّرَاز لا تعبُرُ فيهِ السيّارات، ودخلَ مَقهى بروفروك PRUFROCK Coffee، واقترَبَ منَ المُحَقِّق شَكيب الذي كانَ جالسًا إلى طاولةٍ كُحليَّةٍ مُشرفةٍ مباشَرةً على التايمز، يَفصلُهُ عَن دَفقاتِ المِياهِ الزُّجَاجُ المُلوَّنُ وحَوْضُ نباتاتٍ ذاتِ أوراقٍ عريضَة مُدَوَّرَة والدّرابزون الخَشَبيّ الخارجيّ.

– يبدو المكانُ شاعريًّا.. متى وَصلتَ يا سيِّد شَكيب؟

سألَ صَخر وهو يجلسُ على الكُرسِيّ مقابلَ المَحقِّق.

وراحَ المُحقِّق يغوصُ في سِيماءِ مُحدِّثِه المَهيبَة، ويُحاولُ بحَدسِهِ وغريزتِهِ المُدرَّبَة منذ سنواتٍ طويلةٍ على قراءَةِ "البَوَاطن" واستِبصَار "الكواليس"، أن يلِجَ إلى قلبِهِ من نافذَتَي وَجهِهِ. الفِطرةُ معطوفةٌ على الخِبرَة يصنعانِ المُعجزات. ولكنَّ المُحقِّق شَكيب في نهايةِ المَطاف إنسان. وهذه الهَجمَة الفُجائيَّة من صَخر سويدان إليه أوقعَتهُ في حَيرة. صَخر موضوعُ تفكير المُحقِّق شَكيب منذ أشهر.. وقُبْلةُ استِنتاجاتِهِ الاتّهاميَّة، وها هو الآن ماثلٌ أمامَه مثولاً مَشبوهًا.. أقلّ ما يُقالُ فيه أنّه غريب! ثمَّ أجابَه المُحقِّق:

– منذ ساعة تقريبًا.. كانَ اختياري لهذا المَقهى مُناسبًا.. أنا في الواقِع متشوِّق لسَماعِ حكايتِك. صَمَتَ لثوانٍ وأضاف:

– أنتَ ضَيفي الآن.. ماذا تُحبّ أن تشرب؟

أجابَ صَخر:

– شكرًا لكَ سيِّد شَكيب. سأكتفي بالقهوة الإيطاليَّة.

ثمَّ فتحَ المُحقِّق علبةَ اللُفافاتِ السَّوداء أمامَه، وقرَّبَها لصَخر:

– سيكار؟

– لا شكرًا. سأدخِّنُ من سكائِري متى حَضَرَ فنجانُ القهوة.

صَخر يعرفُ المُحقِّق منذ شهور، والمُحقِّق لا يعرفُ ذلك. والمُحقِّقُ يعرفُ صَخر منذ شهور أيضًا، وصَخر بدَورِهِ يجهلُ هذا الأمر. تَعاكُس طريف! ولكنَّ التَّشابُهَ الطريف

أيضًا في أنَّ الرَّجُلين يَجهلان دَخيلةَ واحدِهما الآخر. إنَّها فرصَة نادرَة.. ليسَت صدفةً البَتَّة! ولكنَّها بلا شَكّ تقاطُع مُدهشٌ لمَسارَين مُنفصلَين كلاًّ في عالمِهِ. ثمَّ سألَ المُحقِّقُ كأنَّه يجهَل هويَّةَ مُحدِّثِهِ بالكامِل:

– هل أنتَ من بَيروت يا صَخر؟

– مِن عَين الرِمَّانه. أجابَ صَخر، وأضاف:

– في الواقِع أنا أسعى وَرَاءَك منذ أشهر قليلة. وقد فكَّرتُ كثيرًا قبل أن آخذَ القرار.

– وكنتَ بحاجَة لقرار؟

– بلا شَكّ كنتُ أحتاجُه!

– أهيَ صَحوةُ ضَمير؟ قالَها وهو ينظرُ في عينَي صَخر نظرةً حمَّلَها رسالة.

– ربَّما.. قد تكونُ صَحوَة ضمير في معنًى ما.. ولكنَّها بالتَّدقيق الحصول على سَنَد.. أو صيغةٍ ما قانونيَّة.. أو إنسانيَّة.. أو معنويَّة حتّى.. لمَا فكَّرتُ بهِ ونفَّذتُهُ منذ زَمَن.

وابتسَمَ المُحقِّق ابتسامةً طفيفة، شاعرًا في قلبِهِ بأنَّه يوشكُ أن يَحصلَ على مُبتغاه. ولكنَّه تابعَ تمثيليَّتَه وتظاهُرَه بالجَهل:

– مُقدِّماتُكَ لا زالت غائصَة في الابهام والعموميّات. ليتَكَ تكونَ أكثرَ دِقَّة يا صَخر.

– أنا صَخر سويدان ابن مُنير سويدان الذي يَعملُ سائقًا منذ زَمَن عندَ غسَّان الجردي. قالَها صَخر وهو يُحاول أن يَستقرئَ تداعياتِها في وَجهِ المُحقِّق شَكيب. وأبقى المُحَقِّق على مَسرَحيَّتِهِ، ومثَّلَ المُفاجأةَ أمامَه ببَراعَة:

– مَنْ.. غسَّان الجردي السِّياسِيّ المَعروف؟!

– أجل.

صمتَ شَكيب لثوانٍ وهو ينظرُ عَميقًا إلى صَخر، ثمَّ قال:

– أنا رأيتُ والدَكَ غيرَ مَرَّة.. أنتَ لا تشبهُهُ البتَّة!

فقالَ صَخر عندئذٍ:

– حقًّا! أين؟ أنتمُ المُحقِّقون.. بلى كثيرون يقولون أنّي لا أشبهُه.

وأرادَ أن يُتابع.. فإذا بالنّادل يقطعُ حديثَهما، ويسألُهما ماذا يطلبان. فأجابَه المُحقِّق من فورِه:

– اثنان قهوة إيطاليَّة وكوبان منَ الماء. وانصرفَ النّادل.

قالَ المُحقِّق شَكيب:

– أنا متشوِّق جدًّا لسَماعِ قصَّتِكَ يا صَخر. هيّا رُحْ بي إلى صُلبِ المَوضوع أرجوك.

فرَدَّ صَخر:

– ألتمِسُ منكَ يا سيّد شَكيب أن تأخذَني بحِلمِكَ وطولِ أناتِك. قد نحتاج لأكثر من جلسَة! وأنا أفضّلُ أن أخاطبَ فيكَ ليسَ رجُلَ العدالة فقط.. بل الأخلاق والإنسان. فالمَوضوع يتعلَّقُ بجَريمَةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥.

*****

الورقة الثانية

لا شَيْءَ يُزعِجُني الآن..
ها نحنُ منسَجمان في النِّسيان!
محمود درويش

الحُبُّ جَحيمٌ يُطاق،
والحَياةُ بلا حُبّ نعيمٌ لا يُطاق.
كامل الشنّاوي

الحُبُّ بالنّسبَةِ للبَعض قَدَر...

ولكنَّه عندَ البَعضِ الآخر قَرَار!

في الصّنفِ الأوَّل قد يكونُ الحُبُّ ضَعفًا.. وفي هذه أبى الشّاعرُ المُتنبِّي على نفسِهِ أن يَقعَ في الحُبّ، معَ وجودِ ما يَشي بغرامِهِ لأختِ سَيفِ الدَّولةِ الحمَداني، والحُبُّ عندَه ضَعفٌ وذِلَّة، والأولويَّةُ للسَّيفِ والكلِمَةِ والمَجد.. وهذه ثالوثُ القوَّة. وأمّا في الصّنفِ الثّاني فالحُبُّ حتمًا قوَّة! ثمَّة شَيءٌ يُشبهُ قرارَ البَحَّارِ أن يخوضَ مُغامرَةً ما عَذراء، وقرارَ المُهاجر إلى بقاعٍ بَعيدَة، وأيضًا قرارَ الفِدائيّ الذي يذهبُ إلى الاستشهاد! بغضِّ

النّظر أكانَ الحُبُّ زاهيًا أم شاحبًا. وإذا كانَ الحُبُّ قَدَرًا فهو يتَّسمُ بطابعٍ رومَنسيٍّ نافذٍ إلى عالمِ الرُّوْحِ ومُتعَةِ الخَيَال. وإذا كانَ قرارًا فهو مُصطبغٌ بمَزيجٍ منَ الشَّجَاعةِ والمَسؤوليَّة والتَّضحيَةِ والمُبادَرَة. وليسَ بالضّرورةِ أن يكونَ النّوعُ الثاني هو الأمثل.. فمَسيرةُ الرَّجُلِ والمَرأة في دُروبِ الحَياة تكونُ عرجاءَ مُتعثِّرَة إذا خبَت فيها شُموعُ الرُّومنسيَّةِ والخَيال، أو كانتْ ضَعيفةً أمامَ العواصِفِ والتَّحَدِيات. والنّتيجةُ الأكيدَة أنَّ الضّعفَ والقوَّة توأمانَ يحتاجُ واحدُهما للآخر.. القوَّةُ تمنحُ الضّعفَ من قوَّتِها للقفزِ فوقَ حَواجزِ العَقبات، والضّعفُ يمنحُ القوَّةَ من عذوبَتِهِ ليصبحُ أكثرَ لطفًا وبَهاءً. وأمّا الاحتمالَ الثّالثَ والأخير، وهو حاضرٌ متأهِّبٌ دائمًا بينَ الضّعفِ والقوَّة، فهو الطّامةُ الكبرَى! أي عندما يقفُ كلاهُما نَدَّينِ مُتحَاربَينِ مُتناحِرَين.. عندَها يتحوَّلُ الحُبُّ إلى مِسْخٍ هَجينٍ مُرعبٍ لا يَرتوي، ولا يُمكنُ والحالة هذه، إيقافُ جَماحِ نَهَمِه وَجَرائمِه إلاّ برَبطِ مِعصَمَيهِ وعَصْبِ عَينَيهِ وإيقافِهِ على جدارِ الإدانة.. وإطلاقِ رَصاصَةِ العَدل.. والرَّحمَةِ بهِ.. وبضَحيَّتَيْهِ اللَّتَين أقلّ ما يُقالُ فيهما أنَّهُما "غَبيَّتَان"!

*****

كانَ النّادلُ في مقهى PRUFROCK Coffee المُشرفِ على التّايمز قد أحضَرَ القهوة الإيطاليَّة، ووَضعَها على الطّاولة أمامَ صَخر والمُحقِّق وانصرَف. ثمَّ أشعلَ صَخر سويدان سيكارتَه الأولى في تلكَ الجَلسَة، وراحَ يمُجُّ الدُّخانَ في الفضَاء. أزاحَ فنجانَ القهوة قليلاً من أمامِهِ، وقرَّبَ المنفضَة إليه.. وهو ينصتُ بعُمق لما سيَقولُهُ المُحقِّق شَكيب مْدَوَّر عندما أفصحَ الأوَّل عن مُرادِه من هذا اللّقاء. رَدَّدَ المُحقِّق عبارَةَ صَخر سويدان الأخيرَة مُظهرًا الاستغراب:

– جريمَة ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥؟!

– ما بكَ؟ سألَ صَخر.

– هذه لم تكن جَريمَة البَتَّة! إنَّها انتحَارٌ مُزدوج لعَشيقَينِ بائسَين. ليسَ هناكَ مُدَّعٍ.. والمَقتولُ هو القاتِل.. وأُقْفِلَ المَلفُّ بالشَّمْع الأحمَر!

كانَ المُحقِّقُ بارعًا في إظهارِ دَهشَتِه، وتمثيلِ دَوْرِ الجَاهل أمامَ الرَّجُل صَخر. شَكيب مْدَوَّر في بدايةِ خَمسينيَّاتِهِ، ذو قامةٍ متوسِّطة عَصريُّ الهِندام، أصلعُ أنفُهُ دَقيق وَعَيناهُ زرقاوان حادَّتان، يُدغمُ في كلامِهِ العَرَبيِّ الكثيرَ منَ المُفرداتِ الإنكليزيَّة والفرَنسيَّة، وهو كذلكَ بارعٌ في تَحليلاتِهِ النَّفسِيَّةِ والسِّياسيَّة. وهذا الكوكتيل الوافر منَ الكونتراستات في شَخصيَّتِهِ مؤشِّرٌ بليغٌ لحُضُورٍ آسِرٍ وكاريزما. ولكنَّ شَكيب يشعرُ في قلبِهِ بأنَّ استنتاجاتِهِ لم تُخطئ! هو الذي يتمتَّعُ بخبرَةٍ واسِعَة في عالم الجَريمَة، وعِندَما يُقصيهِ "الوَحْيُ المَعْصُوم" عن عُقدَةٍ كادَ أن يصلَ إلى حلِّها، يصابُ بإحباطٍ شديدٍ لدرَجَةِ الكآبة! وتبقى الكآبة في قلبِهِ لأسابيع وربَّما شهور. ظنَّ في بدايتِهِ أنّها مُشكلةٌ نفسيَّةٌ عندَه وذهبَ إلى المُعالج النَّفسِيّ. ولكنَّه أدرَكَ فيما بعد أنَّها المَوهبَة الفِطريَّة المَمنوحَة لرجالِ العدالة، وهذه الغريزَة المُلِحَّة المُفرطَة في الازعاج نحو مُلاحقةِ الأشباح واصطيادِ خفافيش الظُّلمَة.. إن هي إلاّ ميكانيكيَّة "سِنْسِر" اقتِفاءِ الأثر الذي وَقَّعَهُ الخالق في دواخِلِهم بدِقَّة. والخطأ المُضحِك الذي يرتكبُهُ المُجرمون دائمًا، أنَّهُم قادرون على الافلاتِ من عَبقريَّةِ هذا "السِّنسِر" العَجيبَة.

سألَ صَخر سويدان:

– وهَل أنتَ مُقتنع بأنَّها انتِحارٌ أيُّها المُحقِّق؟

وابتسَمَ شَكيب مْدَوَّر في قلبِهِ، وَتيَقَّنَ من أنَّ صَخر يَملكُ كلمَةَ المُرور إلى حَلِّ هذه الأحْجيَة. ولكنَّه يُدركُ تمامًا أنَّ القضيَّة انتَهَتْ.. والحقيقة هنا لا قيمةَ لها.. حتّى ولَو ظهَرَ الفاعِلُ الحَقيقيّ! لأنَّ "الوَحْيَ المَعْصُوم" يَبقى دائمًا مِظلَّةً واقيَة للقاتِل المُحتَمل. ولكنَّ كابوسَ الفضوليَّةِ التي تضطرمُ بها غريزةُ السيِّد شَكيب لا يُزيحُهُ إلاَّ جَلاءُ الحَقيقة، تمامًا كالتِّلميذِ الذي يعشَقُ المسائلَ الرِّياضيَّةَ المُعقَّدَة، فلا ترتاحُ عبقريَّتُهُ بسوَى نتائِجِ المُعادلاتِ المُقنِعَة مئة بالمِئة. إنَّها فقط نَزْوَةُ ذكاءٍ مُتَنمِّرٍ أبعَدَتْهُ "الفَوْقيَّاتُ السِّياسيَّة" إلى "غيتواتِ" الخَيْبَة. وأجابَ المُحقِّق عن السُّؤال بنبْرَةٍ واثِقَة:

– أجَل. وهل لديكَ مَعلومات تُفيدُ عكسَ ذلِك يا سيِّد صَخر؟

وأجابَ صَخر:

– في الحَقيقة.. لدَيَّ الكثير لأقولَه لكَ يا سيِّد شَكيب.

قالَ المُحقِّقُ من فورِه:

– وها أنا سامعُكَ حتّى الصَّباح.

ثمَّ سَحَبَ شَكيب مْدَوَّر هاتفَه الموبايل من جَيْبِه، وَسألَ مُحَدِّثَه:

– هل تسمَحُ لي بأن أؤَدِّيَ وَظيفتي كمُحَقِّق.. ما دامَ الكلامُ عن قضيَّةٍ وجَريمَة؟

– ستُسجِّلُ الحَديثَ على الموبايل أليسَ كذلِك؟ سألَ صَخر.

– ألدَيكَ مَانِع؟

– لا.. ليسَ هناكَ ما يُخيف.. أو يُقلِقُ حتّى. فأنا أعرفُ تمامًا أنَّه جَرَى تَعتيمٌ وتصفيَة "مُبرَمَة" للقضيَّة.

فقالَ المُحَقِّق عندئذٍ:

– حَسنًا.. نحن متَّفِقان فلنبدأ بعَمليَّةِ الإقلاع بحِكايتِكَ المُشَوِّقَة. هه.. لقد بدأ الموبايل يُسَجِّل. تفضَّل يا سيِّد صَخر.

وأخذَ صَخر سويدان رَشفةً من القهوَة، ومَجَّ مجَّةً من سيكارتِهِ، ثمَّ شرَعَ يتكلَّم:

– سآخذكَ يا سيِّدي الكَريم إلى مَرحَلةٍ تائِهَةٍ في رُزْنامةِ فصولِ الحَربِ الأهليَّةِ اللبنانيَّةِ اللاَّهبَة.. في ثمانيناتِ القرْنِ الماضي، وبالتَّحديد إلى مَيتَمِ راهباتِ العازاريّة في برمّانا[1]. هُناكَ بدأتِ الحَياةُ الفِعليَّة لوَلَدٍ ما.. يَتيْم! لفَظتْهُ المَسيرَةُ الطبيعيَّة للبشَر في أحدى "دوائِرِها المُرَبَّعَة" بقسوَة، لتقولَ لهُ أنَّه غيرُ مرَحَّبٍ بهِ في قوافلِها الطويلةِ المُضنيَة، وحُجَّتُها السَّاديَّةُ التَّافهَة دائمًا: الحَياةُ قدَرٌ ونَصيب. هكذا ببَساطَة! لقد باتَ الحَظُّ والقدَرُ والنَّصيبُ المُتَّهَمِيْنَ الحاضِرين، أبَدًا، لتَلَقّي الاتّهامات والإدانة.. فيما الجُناةُ الحقيقيُّون طليقون في بلادِ اللهِ الواسَعة.

[1] بلدة تقع في السّفوح الشماليَّة الشّرقيَّة المشرفة على العاصمَة بيروت.

فقاطعَهُ المُحَقِّق:

– يبدو أنَّكَ ستغوصُ بنا في تفاصيلَ وأحداثٍ قديمة جدًّا!

فرَدَّ صَخر وقالَ:

– إنَّ الأسبابَ الحَقيقيَّة للصِّراعات ليستَ الحدَثَ المُباشَر القريب.. بَل هي الأسباب غيرُ المُباشَرَة البَعيدة. أليسَ كذلك يا سيِّد شَكيب؟ هكذا الجَريمَة.. وأنتَ أدرى.

مَجَّ مَجَّةً أخرى من سيكارتِهِ، وعادَ صَخر يُتابعُ قِصَّتَه:

– قبلَ المَيْتَم.. أيْ مرحلة الطّفولة الأولى لا أهمِّيَةَ لها الآن. ما اسمُ الولَدِ اليَتيم.. من هو أبوهُ ومَن هي أمُّه.. واسمُ عائلتِهِ.. أيضًا لا أهمِيَّةَ لكلِّ ذلك. جَوهرُ القضيَّة.. هو كيفَ قادَ هذا الولَدُ قاربَهُ الصَّغيرَ لوَحدِهِ وسطَ العواصِفِ والتَيَّاراتِ العاتيَة. في المَيتَم كانَ اليُتْمُ السّابحُ في وُجُوهِ الصِّبيانِ والفتيات أخاه الوَحيد، والطبّاخُ أمَّه، وخُدَّامُ المَيتَم أصدقاءَه، والإدَارةُ أسرَتَه. ومهما بلَغَتِ المناقبُ والفضائل عندَ هؤلاء لن يُعادلوا حنانَ الأمّ وعَطفَ الأب أبدًا. وهم مَشكورون على ما قدَّموه بكلِّ تأكيد. في المَيْتَم يَعيشُ اليَتيمُ نوعًا منَ الحَياةِ هو مَزيجٌ غريبٌ منَ المَدرَسَةِ والكشَّافةِ والجُنديَّةِ والاصلاحيَّة.. في علاقاتٍ اجتِماعيَّةٍ لا تَسمَحُ بنمُوٍّ عاطفيٍّ تَدريجيّ.. فهو دائمًا في وَضعيَّةِ تَدَرُّبٍ على النُّضوجِ والقوَّةِ والمَسؤوليَّة وهو بَعدُ ولدٌ ضَعيف. وداعمٌ أساسِيٌّ من دعائمِ القوَّةِ في بناءِ الشَّخصيَّةِ هو الاشباعُ العاطفيُّ في سنواتِ الطّفولة. وهكذا تُحرَقُ المَراحلُ والقفَزاتُ النَّفسيّةُ وتُتلف، فيتَحوَّلَ اليَتيمُ في نِهايةِ المَطاف إلى خَميرَةٍ مُشرَّعةٍ على احتمالاتٍ شَتَّى في المُستقبل. وَالتَّشوُّهاتُ النَّفسيَّةُ سيفٌ ذو حَدَّين! لقد كانَ هناكَ نَجمَةٌ وَحيدةٌ في هذا الليل الطّويل في حياةِ الولَد.. الجَدَّة! إنَّها جدَّتُه لأمِّه. كانتْ جدّتُهُ الوَمضَةَ العاطفيَّة الحَقيقيَّة التي برزَت في وَحشتِهِ المُزمِنة.. بل شِبْهِ المؤبَّدَة.. ثمَّ قفزَ جِنُّ القدَر ثانيةً.. وَمَدَّ يَدَه ليَحرمَهُ من نورِها هي الأخرى. إنَّهُ يَعيها تمامًا.. ويذكرُها عندَما كانت تأتي مَرَّتين في الأسبوع ويَقضيان النَّهارَ سويَّة. كانت تأتي يَومَي الأربعاء والأحَد. أحيانًا كانَ ينتظرُها في الباحَةِ القريبَةِ من بوّابةِ المَدخل الرَّئيسيّ، وأحايينَ يكونُ قد نسِيَها لسَببٍ أو لآخر.. وهو ولَد! وعندَما كانَ ينتظرُها في الباحَةِ كانت عيناه الرَّطبتان

طَليعَةُ ما يَضطرمُ في أحشَائهِ، تُخبرانِ عن عُمق الشَّوق والحَنين إليها. لا يَدري لماذا كانَ يشعرُ أحيانًا بهذا الشَّوق العارم إليها! ربَّما في لا وَعيهِ كانَ يرى فيها أملاً ما في المُستقبَل، لقد رَدَّدَتْ له مرارًا أنَّه إذا بقيَ عاقلاً ومُهذّبًا ستُخرجُهُ منَ المَيْتَم ليَعيشَ معها في بَيتِها في بيروت. لقد كانت جدَّتُه مَهيبَةً جذّابَة، أنيقةَ المَظهَر وتُحسِنُ التبَرُّج، وأحيانًا كثيرة، كان يلتقِطُ بذاكرتِهِ الحادَّة، متعمِّدًا، رائحَةَ عطرِها ويُخبِّئُهُ في خَيَالِهِ النَّشِط ليَستحضرَهُ مُعزِّيًا في نَوباتِ العُزلةِ القاتمَة. وربَّما الجَدَّةُ بحكمةٍ عندَها، أو خُطَّةٍ ما كانتْ تُعِدُّها، سَعَتْ أن تكونَ بهذا المَظهَر في عَينَي الوَلَد.. لكي يرَى فيها جَمَالاً أموميًّا، يكونُ بمثابةِ مَرحلةٍ انتقاليَّةٍ قبلَ أن تأخذَه إلى بيتِها في وقتٍ مناسب، كانتْ هيَ تتشوَّفُهُ قبلَ الصَّبيّ. ولهذا السَّبَب عندَما قالوا له ذاتَ يوم:

– وَفاء لن تأتيَ إلى هنا بعدَ اليَوم.

وَهو لم يكن يناديها بـــ "تيتا" بل باسْمِها "وَفاء"، ولم يَدرِ أنَّها جَدّتُه لأمِّهِ إلاّ بعدَ زَمَنٍ على غيابِها.

سألَ مَذعورًا:

– لماذا؟ ألن أرَى وَفاء مَرَّة ثانيَة؟!

قالوا له:

– لا.. لقد ذَهبَتْ إلى السَّماء. إنَّها الآن عندَ يَسوع.

وهكذا انطفأ الرَّجاءُ في عاطفةِ الولَدِ اليَتيم، وبشكلٍ نهائِيّ. وبَكى كثيرًا.. بكى لأيّام.

كانتِ الجَدَّةُ وَفاء تُجلبُ معها أحيانًا الأكسِيَةَ الجَديدَة في بدايةِ مَوسِمَي الصَّيفِ والشِّتاء، وهدايا وحلاوين، وكانتْ هذه مصدرَ فخرٍ وتباهي الولَد أمامَ الصِّبيَةِ رُفقائه، ومُعظمُهُم كانَ فقيرَ النَّسَب، ليسَ هناكَ كائناتٌ تقومُ بزيارَتِهم منَ "العالمِ الخارجيّ". كانَ يُقولُ لهذا الفتى أو ذاكَ مثلاً:

– أنظر.. لقدِ اشترَتْ لي وَفاء هذا الحِذاء.. أليْسَ جَميلاً؟

ولم يكن أحدٌ يسألُهُ من هي وَفاء! هذا ليسَ هامًّا البتَّة بالنِّسبَةِ للأولاد الآخرين. ورُبَّما الإيقانُ المَنطقيُّ الفِطريّ أنبَأهُم أنَّها ليسَت والدتَهُ بلا شَكّ.. وَإذا كانتْ وَفاء أمَّه فما غايةُ وُجودِهِ في المَيتَم؟! هي خالتُه أو عَمَّتُه أو صَديقة مُقرَّبَة منَ العائلَة تعطِفُ وتحنو عليه. ولم يَخطرْ لهُم أنَّها الجَدَّة بسَبَبِ تأنُّقِها اللاَّفت ربَّما، وتَصَابيها. فالولَدُ اليَتيم الذي لم يَذقْ حياةَ الأسرَةِ منذ دُخولِهِ إلى جَحيمِ عالَمِنا.. لن يُدركَ بسُهولةٍ العناصرَ والأشخاصَ التي تؤلِّفُ مُجتَمَعَ العائلة.. فمَلكوتُ المَيتَم برَدْهاتِهِ وباحاتِهِ ويَوميَّاتِه وقوانِينِهِ ونشَاطاتِهِ.. هو لفيفُ أسرَتِهِ.

– هذه أسبابُ أسبابِ الأسبابِ البَعيدَةِ يا سيِّد صَخر. قاطَعَ شَكيبُ صَخرًا مُعلِّقًا بنُكتة. وَرَدَّ صَخر:

– جَريمةُ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ أخلاقيَّة إنسَانيَّة بامتياز يا سيِّد شَكيب!

وعادَ إلى حكايةِ الولَد، فيما صمَتَ شَكيب مْدَوَّر صمتًا طويلاً هذه المَرَّة، وعيناهُ غائِصتانِ في ملامِحِ صَخر سويدان وهو يتحدَّثُ عن طفولةِ يَتيمِهِ الغامضَة، غيرَ مُكترثٍ بمَظهر وأناقةِ مُحَدِّثِهِ البارزَة، وَسَاعتِهِ المُذهَّبَة التي تشي بما لا لُبْسَ فيه بثرَاءٍ.. رغمَ الخَلفيَّةِ الفَقيرَة التي يعرفُها المُحقِّق جيِّدًا!

ذاتَ يَوم.. قالَ.. وهذه قبلَ غيابِ وَفاء الجَدَّة.. وجَدَ الولدُ اليَتيمُ علبَتي البسكويت ومُربَّى راحة الحَلقوم بالفُستق اللتين أحضرَتهما إليه وَفاء.. مَسرُوقَتَين من الخِزانةِ التي بجَانبِ سريرِهِ! وبقيَ صامتًا لم يُخبرْ أحدًا بالأمر. كانَ الصبيُّ كَريمًا.. وأعطى رفيقَه الذي بجانبِهِ منها. لقد كانَت كلماتُ وَفاء سَفينتَهُ في رحلةِ أحلامِ يَقظتِهِ الكثيرَة: "إن بَقيتَ عاقِلاً رائقًا مُطيعًا طوالَ الوَقت هنا، سآخذُكَ معي إلى البَيت ولن ترجعَ إلى هذا المَكان أبَدًا". ولكنَّها كانتْ تشكُلُ وعودَها هذه بالزَّمَن: "ولكن.. عندما يَحينُ الوَقت يا حَبيبي". وإذا سألَها مُلِحًّا: "متى يَحينُ الوَقتُ يا وَفاء؟!" كانتْ تبقى صامتةً مُظهرَةً عدمَ سماعِها السُّؤال. كانَ يعلمُ أنَّ افتضاحَ أمر السّارق سيجعلُه مَكرُوهًا منه، وقد يُنتِجُ هذا مشاكِل.. فآثرَ التَّضحيةَ بالحَلاوين من أجل حَيَاةٍ جَديدةٍ معَ وَفاء. من هنا كانَ سلوكُهُ شبهَ مثاليّ.. ما خلا بعض الشَّقاوَةِ والتَّذاكي في إبراز شَجاعتِهِ الذَّاتيَّةِ في المنافساتِ

والمُغامرات. ثمَّ علِمَتْ بقضيَّةِ سَرقةِ الحَلاوين هذه المسؤُولةُ عن الغُرَف، ولم تعرفْ مَنْ هوَ الفاعِل.. ولم تجدْ أثرًا يُذكر لهذِهِ السَّرقةِ المُوَفَّقة. وهدَّدَتْ بأنَّ العاقبَةَ ستكونُ وَخيمةً! مرَّتِ الأيّامُ والولدُ حزينٌ جدًّا.. وكانَ خائفًا من تداعياتِ الحَادثة. وبَعدَ حوالي خمسَةِ أيّام هربَ أحدُ الأولاد منَ المَيتم واسمُه (دوري)، ولمْ يعرفْ أحدٌ عنه شيئًا لأشهرٍ طويلةٍ رغمَ المُحاولاتِ الحَثيثَة. وذاتَ يَوم.. وكانَ الطَّقسُ ماطِرًا.. شاهدَ صَبِيَةُ المَيتَم، من وَرَاءِ النَّوافذِ الزُّجاجيَّةِ الواسِعَة في غرفَةِ الطّعام، رفيقَهم دوري بصُحبَةِ رَجُلين منَ العَسَاكر مُقبلَيْنَ منْ جهَةِ البَوَّابةِ الخارجيَّة. وراحوا يتهامسونَ: "هذا دوري! لقد رجِعَ دوري!". وكانَ الهُزالُ باديًا في قامتِهِ النَّحيلة. وهكذا عادَ الصَبيُّ دوري إلى المَيْتَم، معَ تَحذير شَديدٍ منَ الإدارَة تحتَ طائلةِ العقوبَة، أن لا يسألَهُ أحدٌ شيئًا عن سَفرتِهِ القصيرةِ هذه. وعادَتِ الأيّامُ إلى مَسيرَتِها الرَّتيبَةِ في المَيْتَم.. ثمَّ بدأَ دوري يُحاولُ أن يكونَ قريبًا من الولَدِ موضوعِ حَديثِنا.. وقد نسِيَ الأولادُ الحِكايَةَ بالكامل.. فهمَسَ إليهِ ذاتَ مساءٍ وقالَ له:

– لا تُخبرْ أحدًا بما سأقولُه لك.. أنا أثقُ بكَ. وأجابَ الولدُ موضوعُ حديثِنا:

– ماذا هناكَ يا دوري؟ قلْ ولن أخبرَ أحدًا صدِّقني. فقالَ دوري:

– لقد كنتُ في السِّجن.

ذُعِرَ الصَّبيّ..! أخرَسَتْهُ المُفاجأة.. وبقيَ ذاهلاً أمامَه. قالَ دوري:

– لقد نَشَلتُ جَزادين ثلاثِ نسَاء.. فاكتشفوا أمري وَألقوا القبضَ عليَّ وأدخلوني إلى السِّجن. لقد ضَرَبَني عَسكريٌّ مُخيفٌ وهو يسألُني عن السَّرقات.. بيَدِهِ وبالخَيزَرَانةِ أيضًا. وبقيتُ في السِّجن شَهرين ثمَّ أعادوني إلى المَيتَم. وصارَ دوري يَبكي.

بقيَ الولَدُ موضوعُ حديثِنا صامتًا لا ينبسُ ببنتِ شَفَة. وعادَ دوري وتابعَ الكلام:

– أما زلتَ تذكرُ علبَتَي البسكويت وراحةِ الحَلقوم؟

ولم يُجبْ قبلَ مرورِ ثوانٍ، وتكلَّمَ متمَهِّلاً والدَّهشَةُ توشِّحُ مُقلتَيْه:

– بلى.. أذكرُها يا دوري.

– أنا الذي سَرَقتُها منَ الخزانةِ بجانبِك. أنا الآن أطلبُ منكَ أن تُسامِحَني.. سامِحني أرجوك! وأريدُ أن نكونَ منَ الآنَ وَصَاعدًا صَديقَين.

لقد غفرَ الصَبيُّ لِدوري من فورِه، ورَبَّتَ على كتِفِهِ وأحبَّهُ. بيدَ أنَّ أفكارَه قفَزَتْ إلى "العالمِ الخارجِيّ"، وماذا يُمكِنُ أن يُخفيَهُ هذا العالم من تحَدِّياتٍ ومُفاجآت. أهوَ غابة.. أم متاهَة.. أو مُحيطٌ هائِجٌ مائِج.. وهنا المَيتَم قلعَة منيعَة؟! ومنذ بدايةِ صداقتِهِ بالصَّبيّ دوري خبَا الشَّوقُ في نفسِهِ نحو ما ظنَّهُ أرحَبَ وأجمَلَ من يوميَّاتِ وقوانينِ المَيتَم الصّارمَة. هو لم يكُنْ مثاليًّا نقيضًا لِدوري.. إنّه ولدٌ في نِهايةِ المَطاف.. شَقِيٌّ ذكيٌّ يُحبُّ العَبَثَ واللّعِب.. يَعشَقُ المُغامرات في الرِّحلات والمُخيَّمات والتَحدِّيات. والذي ميَّزَهُ عن مُجايليهِ في المَيتَم شجاعَتُهُ حَدَّ التَهَوُّر، وسُرعةُ خاطر تكاد تكونُ سِحرًا أو مَوهبَة.. حَدْسًا روحانيًّا غامضًا. ولكِنَّ إرثًا ثمينًا أودَعَتْهُ إيَّاهُ وَفاء قبلَ رَحيلِها إلى السَّماء بشَهرَين.. إنجيلٌ صَغير.. وقالت له: "إحتفِظْ بهذا الإنجيل معَكَ جيِّدًا وطوالَ العُمر.. لأنَّهُ رَجَاؤُكَ الوَحيد في هذِه الحَيَاة". وقد كتبَتْ على الوَرَقةِ البَيضاء الأخيرَةِ فيه الكلِماتِ التالية:

والِدي هو السيِّد غَيث الرَّاسي، الاقتصاديُّ الكبير مالكُ الشَّركات العِقاريَّة.

*****

الورقة الثالثة

الانتقامُ هو المساحَة الوَحيدَة
التي لا يُمكنُ التَّنبُّؤُ فيها بمَدى خَيال الإنسان.
أحمد الفخراني

جَـزَاءُ كلِّ قريْـبٍ مِـنكمُ مَـلَـلٌ
وحَـظ كـلِّ مُـحِـبٍّ مِنكمُ ضَـغَـنُ
المُتنبّي

الطُّمُوْح.. ذلكَ الكابوس!

وليسَ كابوسًا فحَسْب.. بل هو فُصَاميَّةٌ تَوْأم تستَعبِدُ المَرْءَ وتسوقُه أَنَّى عَيَّنَتْ لها بوصَلَةُ الأهواء.

ما هو الطُّموح وما هيَ مُحَرِّكاتُهُ الدَّافِعَة؟

أهو نزوَةٌ أنانيَّة؟ أو هبَةٌ منَ الخالقِ للإنسَان.. غايتُها دَفعُ عَجَلَةِ الحَياةِ البَشَريَّةِ إلى الأمام؟ أمِ الاثنانِ معًا؟! قد يكونُ الطُّموحُ دينامو التّاريخ.. أو قَدَّاحَتَهُ! فلولا الطّموح لما

كانَ الابداع، ولولا الابداعُ لما كانَ الذَّوْقُ، ولولا الذَّوْقُ لما كانتِ الحاجَة، ولولا الحاجة لما كانَ العِلم. ويُخطئُ من يَظُنُّ أنَّ الحَاجَةَ هي أمُّ الاختِرَاع.. لأنَّ الدَّافعَ الجَوهريَّ وَرَاءَ كلِّ مُخترَعاتِ ومُبتكرَاتِ البَشَر هو هذه النَّارُ المُضطرمَة فوقَ مَذبَحِ الذَّات، وتُريدُ أن تُسقِطَ نفسَها في مُنتَجٍ يكونُ قُبلةَ العُيُونِ وإشارَاتِ البَنان. وأمّا قضيَّةُ تلبيَةِ الحاجَات، أو وَظيفةُ هذا المُنتَج، إن هيَ إلاّ ظِلٌّ.. أو مُجَرَّد شُعاعاتٍ لهذه الذّاتِ المُلتهبَةِ في الدَّاخل.

ولأنَّ الطُّموحَ نارٌ دائمَةُ الاشتعال.. فهو أداةٌ خَطِرَة! تمامًا كالنَّار التي بها نَستدفِئُ أو نُحرقُ بها المَدائِنَ والقُرَى. فهو في أحيانٍ كثيرَة شَيطانٌ في عَبَاءَةٍ بَيضاء! طموحٌ عِلميّ.. طموحٌ ثقافيّ.. طموح سياسيّ.. طموح أدَبيّ.. طموح اقتِصاديّ.. هذه وغيرُها قد تكونُ تَشَوُّفاتٍ مَشرُوعةً مُفيدَة.. إلاَّ انَّها، وهذا غالبًا ما يحدُث، تشظِّياتٌ مؤذيَة بل مُدَمِّرَة! فيما لو أسقَطَتْ من حِساباتِها فائدَةَ وبُنيَانِ الآخرين.

والطّموح نوعٌ منَ الانفعالاتِ والرَّغبات مُلتبِسَة مُشوَّشَة.. ربَّما لأنَّها سَريعَةُ الاندِماجِ والذَّوَبانِ في مفاهيمَ ونوازعَ أخرى عندَ الانسان.. كالطّمَعِ مثلاً.. والحَسَدِ وشَهوةِ السُّلطَة وشَهوةِ التَّجميع وشَهوَةِ التَّحقيق وشَهوَةِ الانجازاتِ التّاريخيَّةِ الكُبْرى. كم من عالِمٍ أضَرَّ أكثرَ ممّا نفَع! وكم من سياسِيٍّ هدَمَ أكثرَ ممّا بَنَى! وكم من اقتِصَادِيٍّ جَشِعٍ حَصَدَ أمجادَهُ بمَناجِلِ الضُّعَفاء، وصَعدَ إلى قُبَّةِ ثَرائِهِ على دَرَجاتِ سُلَّمِ العامَّةِ البُسَطاء.

ويَرَى الكثيرون أنَّ الحَياةَ بلا طموح لا قيمَةَ لها. وهذا منطِقٌ إنسانيٌّ صادِق، لأنَّ قيمَةَ الحياةِ العَظيمَةِ في طموحاتِها العَظيمَة.. فيما لو خرَجَ الطّموحُ من سِجنِ الذَاتيَّةِ إلى حُريَّةِ الخَيرِ العامّ. وغالبًا ما يكونُ شاعريًّا مثاليًّا في سَنواتِ المُراهقة.. والتَحَدِّي الكبير أمامَه أن يَستمرَّ هكذا! فما إن تحُطُّ بهِ أرياشُ مِثاليَّتِهِ على تضاريسِ الواقعيَّةِ المُخيفة، ليَكتشِفَ أنَّ الواقِعَ مَحكومٌ بمُعادَلاتِ الماديَّةِ والاستِغلاليَّةِ والانتِهازيَّة والمَحسُوبيَّة والبازاريَّة والتَداؤُبيَّة، فيَبْدَأ مُكرَهًا، في التَدَرُّبِ على الشَّريعَةِ الواقِعيَّةِ لتَحقيق إنجازٍ ما.. أو انَّه سيَبقى مُحلِّقًا في فَضَاءٍ طوباويَّةٍ خَياليَّة لا قيمَة عَمَليَّة لها.

*****

غيث الرّاسي (٤ آذار ١٩٦٧ – ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥).

المَصدرُ الأساسيّ للمعلومات الواردَة في هذا الفصل وما يليه.. هو بعضُ أصدقاء وأقارب السيِّد غيث الرّاسي الاقتصاديِّ الكبير، مالكِ ومؤسِّس العَديد منَ الشّركاتِ العقاريَّةِ والتِّجاريَّة.

تزامَنَتْ طفولةُ غيث الرَّاسي معَ اندلاعِ الحَربِ الأهليَّةِ في لبنان. وقد أحدَثَتْ مشاهدُها القاسيَة كَدماتٍ وَعَطبًا في أجنِحَةِ الطفولةِ الزَّاغبَة، تمامًا كما هي حالُ الطّفولةِ أثناءَ الحُرُوب في كلِّ مكان. فأسلحَةُ الحُرُوبِ والصِّراعات، وهكذا دائمًا، تُعَرِّي الشُّعوبَ من قِيَمِها، وتُمَزِّقُ ثوبَ النَّقاوَةِ الأولى. فالأمَّةُ بعدَ الحَرْبِ غيرُها قبلَ الحَرب. وَالحَرْبُ هي البيئَةُ الصَّالحَة لانبعاثِ شَياطينِ النَّزَعاتِ القذرَة في الإنسان: الغَدرِ والسَّرقة والإباحيَّةِ والإرهابِ وعُشقِ الدِّماء والمافيَويَّة.. وتُصبحُ الأمانةُ والشَّهامَة والرُّجُولة والوَفاء والصِّدقُ والشَّرَف مُفرداتٍ عَتيقةً لا تنتمي لروحِ العَصر. فلكلِّ عَصرٍ مُصطلحاتُه، ومُصطلحاتُ السِّلم والبَحْبوحَةِ ليسَت هي ذاتَها التي تستخدَمُ أثناء الصِّراعاتِ الدَّاميَةِ المُزمِنَة. وباختِصار.. جيلُ سَبعينيَّاتِ القرنِ الماضي في لبنان هو جيلُ "الزَّعرَنات"[٢] وانهيار القيَمِ والمبادِئ وانفلاتِ الوَحشِ داخِلِ الإنسَان.. او انَّ الحَربَ هي التي مسَخَتِ الإنسانَ إلى وَحش.. واحِدَة منهُما. والطّفولةُ هيَ نواةُ الإنسان.. هيَ اللَّبِنَةُ الأولى.. هي فِرْدَوْسُهُ! فإذا كانَ الفِرْدَوسُ جَحيمًا فالجَحيمُ كَمْ يَكون؟! وبعدَ الحَرب، حتمًا، لن يعودَ الإنسانُ كما كانَ قبلَها.. فالحربُ مَسَحَتْ بل "فَرْمَتَتْ" ماضيًا صَالحًا بَريئًا.. وأدغمَتْ "داتا" جديدةً سَوداءَ بشِعَة في الضَّميرِ والقيَمِ والأهداف.

غيث يذكرُ جيِّدًا الفُصولَ الأولى للمَعركَة.

ويذكرُ عدَدًا منَ المشاهدِ الوَحشيَّ منها والغريب طُبِعَتْ على قُرصِ خيالهِ وعاطفتِه، وستُشكِّلُ قُطَبًا مَخفيَّةً في نَسيجِ لا وَعيهِ وَشَخصيَّتِهِ العَتيدَة. ومعَ مرورِ الزَّمَن.. وكلّما أزفَتْ مناسبةُ ذِكرى ١٣ نيسان ١٩٧٥، أو إذا دارَ الحَديثُ عنِ البدايات، تَقفِزُ هذِه الصُّوَرُ من الـــ Recycle bin إلى الـــ Restoring وتصبحُ واقعًا كأنَّه البارحَة. وفي واحدَةٍ

[٢] إنعدام الأخلاق.

من هذه وكانتْ مَفصلاً تاريخيًّا.. وكانَ ابنَ ثماني سنوات.. كانَ واقفًا على رُؤُوسِ أصابعِ رجليهِ في ذلكَ اليَومِ الماطرِ من بدايةِ شَهرِ آذار ١٩٧٦ بجانِبِ أمِّهِ وأبيهِ عندَ النَّافذَة. أنفُهُ مُلتصِقٌ بالزُّجاج ولُهاثُهُ يرسُمُ هالتَهُ الضَّبابيَّة على زُجاجِ الشُبّاك فيَمحوَهُ بأناملِهِ ليرى ما كانَ الثلاثةُ شاخصينَ إليه في الشّارع، في تلكَ المحلَّةِ التي كانتْ مُكتظَّةً وباتتِ الآنَ شبهَ مُقفِرَة. كانَ هناكَ نفَرٌ من المُسلَّحينَ المُدَجَّجين وَصَليلُ البَنادقِ وعِتادِهِم الحَربيِّ كأنَّه موسيقى عَسكريَّة. لم تكُنِ الوُجوهُ وُجوهَ بَشَر! غَضَبُ العيون مُتعطِّشٌ للدِّماء. وفجأةً! أنزلَ رَجُلٌ متوَسِّطُ العُمر من صُندوقِ السَيَّارَةِ الخَلفِيِّ مُقيَّد المِعصَمَين. وما إن رَبَطوا ساقيه كلاًّ بسيَّارَةٍ.. وانطلقَتِ السَيَّارَتانِ في اتِّجَاهَين مُتَعاكسَين.. حتى أطلقَ صَرخةً مُدَوِّيَة! وصَدَّ الصَبيُّ غيث والدَتَه عندَما أرادَتْ أن تبعِدَه عنِ النَّافذَة إلى داخلِ البَيت. دَفعَتْ بهِ بقوَّةٍ إلى المَطبَخ في الجهةِ الثانية من الشقَّة. ولكنَّهُ عارَكَها وأفلتَ منها إلى غرفتِهِ المُحاذيَة للغرفةِ التي يقفُ فيها والدُه وأقفلَ الباب منَ الدّاخل بسُرعة.. ومن مكانِهِ قربَ نافذَةِ حُجْرَتِهِ سَمِعَ بوضوحٍ كامِلٍ صُراخَ الرَّجُلِ وأنينَه ورآهُ أصبحَ قطعَتَين كلَّ قطعَة مُعلَّقة بسيَّارَة.. ورأى أحدَ حاملي السِّلاح يطلقُ رصاصةً واحدة في رأسِه، وانتهَى الأمر. وعندَما خرَجَ منَ الغرفَة ذُعرَت الوالدَة من شَجاعةِ ابنِها غير المُتوقَّعَة، بيدَ أنَّ ملامحَهُ كانتْ صَفراءَ شاحبَة، وكلماتُه طبيعيَّة جدًّا. قالت وَالدَةُ غيث لزَوْجِها:

– عَجيب أمرُ هذا الصَبيّ يا فارس.. وَحش بلا إحساس.

زَجَرَتهُ بقوَّةٍ وأنَّبَتْه.. وطلبَتْ أن يُعاقب. فقالَ لها زَوْجُها فارس:

– دَعيه يُصبِحْ رَجُلاً.. هذا الزَّمَن زَمَنُ الوُحوش.

إنَّ اهتمامَ الأهل الأوَّل إبّانَ الحَرب ليسَ تربيَةَ أولادِهم، بل كيفَ يبقونَ على قيدِ الحَياة.. وماذا يَأكلون وماذا يَشربون وكيفَ ينامون! كانَ هذا المَشهَد اللَّقطَةَ الأخيرَةَ من فيلم العُنفِ الطّويل المُقرف في بيروت.. دَفعَ بفارس الرَّاسِي والد غيث ومالك متجرٍ كبيرٍ للألبسَة والأحذية الرِّجَّالي أن يترُكَ شقَّتَهُ ومتجَرَه، وفي ليلةٍ ليلاء، وحيث

الاشتباكاتُ الليليَّةُ والاقتِحاماتُ جَحيمٌ لا يُطاق، إلى مَدينةِ جونيه[٣]. على أن يَعودَ فيما بعد لإنقاذِ وأخذِ ما يُمكنُ أخذُه. لقد عجَنَتِ القسَاوَةُ شخصيَّةَ ذاكَ الجيل.. وآمنَ باكرًا جدًّا بأنَّ القوَّة خيرٌ والصَّلاح ضعف، القوَّة تُطعمُ خبزًا والخَيرُ لا يُجدي. عندَما يكونُ العَدُوُّ شرسًا.. عليكَ أن تتمَرَّسَ في مهاراتِ الشَّراسة تحضيرًا للمُواجَهَة، والتَّعبئَةُ آنذاك نفسيَّةٌ قبلَ أن تكونَ في العتادِ والسِّلاح. وكانَ هناكَ نفَرٌ من أقرباءِ فارس الرَّاسي منخرطون في القتالِ على الجَّبَهات. قالَ غيث لابنِ عمِّهِ المُحارب ذاتَ يوم، وكانَ يكبرُهُ بسَنَوات:

– لو كانَ طولُ البندقيَّةِ يَصِلُ إلى بَطني فقط.. لذَهبتُ معَكم إلى المَعرَكة.

وفي جونيه كانَ الوالد فارس مُنهَمكًا في افتتاحِ مَتجَرٍ آخر للألبسَة الرِّجّالي، وفي كيفيَّةِ إنقاذِ ما تبَقَّى له من بضاعتِهِ في مَتجَرِهِ في بيروت، حيث السَّرقة في أسواق العاصمَة كانت موضَةَ تلكَ الأيَّام بعدَ سقوطِ الدَّولة المركزيَّة. ولم يَمضِ بَعدَ ذلكَ عامان حتى ابتاعَ لهُ شقَّةً جديدة في محلَّةٍ مُشجرَةٍ مُشرفةٍ على أحياءِ المَدينة، واستَقرَّ بهِ الحال. ثمَّ شرَعَتْ سَنَواتُ الثَّمَانينات في مَدِّ أعناقِهنَّ ورُؤوسِهنّ. والفتى غيث، وهو في مَهَبِّ عواصِفِ المُرَاهقة، راحتْ براعمُ غريزتِهِ الجنسيَّة تتفتَّحُ. لم يكن لديهِ أخت، هو الأكبر وأخوه فؤاد يَصغرُهُ بثلاث سنوات. كان جَريئًا وَقِحًا هو وأخوه فؤاد.. والاثنان يُعابثان الفتاةَ الخادمَة التُّركيَّةَ الأصل والمُثيرَة روجين، والتي كانتْ تعيشُ معهم في شقَّتِهم الجَديدة في جونيه. فؤادُ يريدُ اللّعِبَ فقط.. وأمّا غيث.. فقد باتتْ أحلامُ غريزتِهِ، ومعَ سنواتِ النّضج، فراشاتٍ ملوَّنَة تحوِّمُ فوقَ زنبَقَةٍ وَحيدَة.. روجين! والوالدان في البدايةِ لم يكترثا لهذا العبَثِ الذي ظنّاهُ صبيانيًّا بريئًا، وفي ظلِّ عدَم وجود أخت في الأسرَة. وروجين المُثيرَة هذه كانتْ ميَّالةً لغَيث! هو في السّادسَة عشر وهي في التاسعَة عشر. ومنذ مراهقتِهِ برزَت موهبَتُه الخَلاّقة في مُلاطفةِ المَرأة. حُلوُ المُفرَدات ظريفُ التَّلميحاتِ التي تُرضي الأنوثة وتُشبعُها، والمَظهَرُ رُجوليٌّ جذّاب واعِد، وبالتالي فهو يملكُ أدواتِ المبارزَة في ساحاتِ الكازانوفيَّة. وأمّا في المَدرسَةِ فلم يكن متفوِّقًا، بل كانَ دَبُّورًا تائهًا يَطيرُ في كُرومِ الغِوايةِ ويحُطُّ فوقَ عناقيدِ الحُسْنِ والأنوثة.

[٣] جونيه مدينة ساحليَّة شماليّ العاصمة بيروت.

كانت مقاربَةُ التابوات آنذاك خجولةً جدًّا بالمقارَنة مع اليَوْم، حيثُ انتَهَى مفهومُ التابو إلى غير رَجعَة، لا في المَرئيَّاتِ ولا السَّمَعيَّات ولا النَّدَوَات. الإعلامُ كانَ بدائيًّا بالنِّسبَةِ إلى الثّورةِ التكنولوجيَّة الرّاهنة، والتَحدُّثُ بأمورِ الجنس كان مُجَرَّدَ همَساتٍ ووَشوَشاتٍ بينَ الرِّفقَةِ في الدَّائِرَة الضيِّقة، وَظاهرَاتُ المِثليَّةِ والاغتِصَابِ والتَحَرُّشاتِ والعُنفِ الجِنسيّ لمْ تكنْ بَعْدُ صَرخةً مُدوِّيَة وَمَدًّا عاتيًا.. أقلّه فوْقَ الطَّاولة. ثمَّ انتشرَتْ خَبَريَّةُ هذا الرَّجُلِ الغريبِ سُليمان الذي راحَ يتَحَرَّشُ بالفتياتِ المُراهقات.. وحتى القاصِرات مِنهُنّ. وكانَتِ النِّسَاءُ في المحلَّةِ وضواحيها يقُلنَ عنه أنَّهُ "أزعر.. بلا تهذيب.. بلا مَربى.. بلا أخلاق". وأمّا مفهوما المَرَضِ النَّفسِيّ والتَّحَرُّش فكانا "إجتماعيًّا" في ظلمَةِ العَدَم آنذاك. كانَ سُليمان هذا يُطاردُ الفتيَات بسيَّارَتِهِ، يُراقبُهنّ بعدَ خرُوجِهنّ منَ المَدرَسة، ويتَصيَّدُهنَّ وَحيداتٍ في زاويةٍ ما أو وَرَاءَ جدارٍ أو تَحْتَ شجَرَة. ولكنَّ واحدةً منَ الصَّبَايا السِتَّةِ اللَّواتي قدَّمْنَ شهادَتَهُنَّ ومُواصفاتِ ملامِحِه، لم تعترفْ بأنَّهُ حاولَ إيلاجَ قَضيبِه، أي فعلَ الاغتصاب، ورَفضْنَ جميعُهنّ بقوَّةٍ رُؤية الطَّبيبَة. وحَلَّلَ البَعضُ أنَّه الهلَعُ والصَّدمَةُ الارتِدَاديَّة. واحِدَة قالت أنَّه ناداها باسمِها وسألَها عن مكانِ سكَنِ المُختار نَجيب، وما إن فتَحَ بابَ سيَّارتِهِ وأراها عضوَهُ التَّناسُليّ، حتى صرَخَتْ من فورِها وركَضَتْ مُسرعةً إلى دُكّانِ أبو مارون تلتقِطُ شتاتَ رُوْحِها المَذعورَة. واحِدَة قالت أنّه كانَ جالسًا من ورائِها في الحافِلة ومَدَّ يدَهُ إلى ثديها. في المَرَّةِ الأولى أبعَدَتْ يدَهُ بعنفٍ ولم تتجاسَر أن تنظرَ خلفَها لشدَّةِ الخوف بسبَبِ كثرَةِ الشّائعات. وفي المَرَّةِ الثانية أرادَتْ أن تنهَضَ من مكانِها إلى الأمام.. فصرَخَ رَجُلٌ خمسينيٌّ من الخَلف بصَوتٍ عالٍ:

– أرفَعْ يدَكَ عنِ الفتاة يا أخو هيك وهيك وإلاّ...

فقامَ سُليمان، يُحاولُ أن يُخفيَ سَحنتَهَ، إلى بابِ الحافلةِ كأنَّه يَنتظرُ تمَهُّلَها للقفزِ منها. فوثبَ وَرَاءَهُ الرَّجُلُ الخَمسينيُّ، وحدَثَ تلاسُن وتدافع بينَهما، فأوقفَ السَّائِقُ عندئذٍ الحَافلة، وتدَخَّلَ بعضُ الرُكَّابِ للتَّهدئَة.. وكانت فرصَةُ سُليمان للقَفزِ والفِرار.

وفي نهايةِ المطاف ألقيَ القبضُ على هذا الرَّجُل الغريب سُليمان وأشبعَ ضَرْبًا مبرّحًا. ولمْ يعرفوا أنَّ اسمَهُ سُليمان إلاّ بعدَ أن أوقفوه! وجاؤُوا بالفتاةِ المِسكينة لميس لكي ترَاهُ وتَتحقَّقَ من ملامِحِه. ولكنَّها لشدَّةِ الخوف لم تقدِرِ المِسكينة أن تدخُلَ إلى الرَّدْهَة، معَ وجودِ عدَدٍ منَ الرِّجال! حيثُ كانوا يؤدِّبونَهُ وهو جالسٌ على كرسِيٍّ خشبيٍّ مقيَّد المِعصمَين وراءَ ظهرِهِ. مدَّتْ رأسَها منَ الباب ورَأت منظرَهُ الشَّاحِبَ وقميصَهُ المُبلَّلَ منَ العَرَق وشَعرَهُ المُشَعَّثَ والدِّماءَ نازفةً من شَفَتِهِ وصُدْغِهِ. فتَرَاجَعَتْ تريدُ أن تهرُبَ وهي تقول لهم:

– هذا هو.. هذا هو!!

فأمسكوها ودفعوها إليه.. وقالوا لها:

– ابصُقي على وَجهِهِ واضربيه بحِذائِك.

فأذعَنَتْ لطلبِهِم وفعلَتْ هكذا، وكانتِ الفتاةُ ترتجفُ ارتجافَ وَرَقةِ الخريف. ثمَّ سلَّموا الرَّجُلَ سُليمان إلى السُّلطات، وانتَهتْ أسطورةُ الشَّبَح المُتَحَرِّش الذي أرعبَ عشَرَاتِ الفتيات في المَدينة. بيدَ أنَّ مُغامرات سُليمان هذا كانت حَديثَ السَّاعةِ في المحلَّةِ وفي بَيت فارس الرَّاسِي أيضًا، فنبَّهَتْ الزَّوْجةُ الطيِّبَةُ خادمتَها روجين أن تكونَ حَذِرَةً في رَوحاتِها وجيئاتِها، وهي لا تعلمُ أنَّ مُتَحَرِّشًا ظريفًا مَحبوبًا سارحٌ بينَ ظهرانيهم. وما تناهى إلى سَمعِ غيث من سَقيطِ أخبارِ هذِهِ المُغامراتِ المَريضَةِ لسُليمان، ألهَمَ مُخيِّلَتَه ليَخوضَ مُغامراتٍ مُماثلة.. ولكن بعيدًا عن العُيونِ والآذان.

وذاتَ يوم، كانَ غيث وروجين لوَحدِهما في البَيْت. فدَخلَ إلى الحَمَّام وتعَرَّى يُريدُ أن يَتدَوَّش. ونادَى:

– روجين! ما هذا الذي أراهُ على الأرض هنا في الحَمّام؟!

وكانَ هذا كمينًا خبيثًا أعدَّه لروجين.

فوَثَبَتْ روجين مِن فورِها إلى الحَمَّام لترى ما الأمر. فَرَأتْ غيث عاريًا بالكامل.. وتعَمَّدَ أن يَنظرُ في عَينيها بعُمق ليَتحرَّى إسقاطات صورة جسَدِهِ العاري في ملامِحِها

وانفِعالاتِها. وكانت رَدَّة فِعلِها الطَّبيعيَّة الأولى أن وَضَعَتْ يدَها على عَينَيها وشَهقَتْ، ومدَّت يدَها الثانية وأغلقت بابَ الحمَّام وهي تقول بصَوتٍ عالٍ:

– ماذا فَعَلتَ يا مُحتال؟ عيب يا غيث.. عيب!

وفي مَهَبِّ المُراهقة يَظنُّ الشّاب أنَّ مشهَدَ الرُّجُولةِ العاريَة يُحَرِّكُ الغريزَةَ الجنسيَّةَ عندَ المَرأة.. ثمَّ تمُرُّ سَنَواتٌ "طويلة" حتى يُدركَ أنَّ غريزَةَ المرأةَ ليستْ بالصُّورَةِ التي كانَ يَظُنّ، وإيقاظَ اللَّهيبِ المُتمَرِّد في أحشائِها يَحتاجُ لما هو أعمَق بكثير منَ العُري.. إنَّه يحتاجُ لهندَسَةٍ وَفَنّ! بيدَ أنَّ سَعيَ غيث نحوَ روجين لم ينتهِ هكذا. فقد كرَّرَ الخطَّةَ عَينَها وبالسّيناريو نفسِه.. وامتَثَلَتْ روجين لندائِهِ أيضًا، غيرَ مَخدوعةٍ! كما لو كانتْ تنتظرُهُ بشَوقٍ في قلبِها. وكرَّرَتْ كلمَاتِها السَّابقة:

– عيب يا غيث.. عيب!

معَ تغييرٍ بسيطٍ هذه المرَّة، وهو أنَّها لم تضَعْ يدَها على عَينَيها، وبَقيَتْ لثوانٍ تتأمَّلُ جَسَدَه قبلَ أن تُغلقَ بابَ الحَمَّام بهُدوء.. وفي عَينَيها بريقٌ خبيث، إن هو إلاَّ ضَوءٌ أخضَر لغيث أن يفعَلَ هذا أيضًا وأيضًا. فراحَتْ نظراتُهُ وتلميحاتُهُ ومُغازَلاتُهُ معَ الأيّامِ والشُّهور تتقُرُ كالمَاءِ على صَخرَةِ مناعَةِ روجين، ولا يَعمَلُها إلاّ إذا كانا وَحيدَين. وهنا والِدُ غيث مُنهمِكٌ بتجَارتِهِ، فخورٌ برُجولةِ وَلدِهِ، والوالدَة لم تدركْ بعدُ أنَّ طيشَ وَلدِها على قابِ قوسين أو أدنى منَ الدَّائِرَة الحَمراء. وكيف ستعلمُ "إذا القاضي راضٍ؟!" روجين سَعيدَة معهُم ولا تشكو من أيِّ مُضايقة، وهي أمينة مُطيعَة، وفوقَ هذا استطاعَت إخفاءَ مُغامرَتِها وراءَ أداءٍ مسرَحيٍّ متألِّق. روجين يَتيمَة "مقطوعة من الشَّجَرَة" كانتْ تعملُ في طفولتِها في مصنع للألبسَة في بيروت، وأفلسَ المَصنعُ وأقفِل، ثمَّ راحَتْ تدورُ على المنازل باحثةً عن عمَل.. فرمَاها حَظُّها في بيتِ فارس الرَّاسي، وكانَ شافعَها لدى آل الرَّاسي ظرفُها ونشَاطُها. وهكذا مَرَّتِ الأيَّامُ والفُضوحيَّةُ الإيروتيكيَّة بينَ غيث وروجين تتكرَّرُ لمَرَّات.. حتى استيقظَ أخيرًا شَيْطانُ الأنثى في داخلِها. وتجاسَرَتْ ذاتَ مساءٍ، وكاناَ وَحدَهما أيضًا في البَيت، أن تنصُبَ الكمينَ نفسَه الذي يَعملُه هو معَها. ونادَتْهُ وهي تستَعِدُّ لأخذِ الدُّوْش فوثبَ إلى الحَمَّام ورآها

عاريةً..! وتأمّلَتْ عَينَيهِ الجاحِظَتَين تجولانِ فوقَ أثيرِ جَسَدِها النَّضِر، ثمَّ اقتربَتْ من البابِ لتُغلقَهُ في وَجهِهِ فحاولَ أن يمنعَها أوّلاً.. ولكنَّه أذعَنَ لمَشيئَتِها عندما قاوَمَتْه وهي تقول:

– لا يا غيث! لا! لا! إذهبْ أرجوك.

من جهَةِ غيث غرورُ المُراهقة يمنعُهُ من رؤيةِ العاقِبَة الوَخيمَة التي يُمْكنُ أن يَجنيَها من تماديهِ في تهوُّرِهِ الأرعَن هذا. ومِنْ جِهَةِ روجين.. فهيَ حتمًا خائِفَة..! وهي تعلمُ أنّه منَ النّوعِ الدُّنجوانيّ الذي لا يثبتُ على علاقة، وبالتالي لا يصدقُ في علاقة.. وهي في حياتِهِ إن هي إلاّ موسِم عابر من مواسِمَ عتيدَةٍ لا زالت تنتظرُ مَجيءَ فصولِها. كانتِ البداية نزوَةً بسيطَة، وهي التي تعيشُ وَحدَةً مزمنةً في هذا العالم.. أنِسَتْ بهِ وارتاحَتْ لمَعشَرِهِ.. ووجَدَتْ بهِ واحةً منَ الحُرِّيَةِ المُمتِعَة تلهو بها أثناءَ نوباتِ الحَنِين الفارغ. ثمَّ راحَتْ كُرَةُ الثَّلج تتدَحرَجُ وتكبُر معَ الأيَّام والشُّهور.. وسنواتُ المُراهقَة كالحُلُم! وباتَ الرَّجوعُ إلى الوراء شيئًا صَعبًا.

وذاتَ يَوم دعا غيث روجين إلى مُشاهدةِ فيلم سينمائيٍّ، وعشاءٍ بسيطٍ بعدَه على قدِّ عاشقَينِ مُراهقين، في أحَدِ المطاعمِ بعيدًا عن جونيه. ووَضعَ خطَّةً لهذا المَشروع.. بعدَ أن مهَّدَ له بأشهُر بهدايا وبعض المال على سبيل المُساعدَة.. وورودٍ وعُطور.. وكلّ هذا في كواليس السِرِّيَّةِ التامّة. تمامًا كالفتاةِ اللتي تستعدُّ للخروج "خَطيفة" معَ حَبيبِها. والمَرْأةُ بارعَةٌ جدًّا في كتمانِ مشاعرِها. قالَ لها:

– قولي لوالدَتي أنَّكِ ستذهبين لسَهرَةِ عُرْسٍ عندَ صديقةٍ قديمة في الزَّلقا. وبأنّكِ ستذهبينَ بسيَّارة أجرَة وهم يُعيدونَكِ إلى البيت بسَيَّارَتِهم. ويكونُ لقاؤُنا عندَ مدخلِ السِّينما على الدَّوْرَه[٤].

وقبلت روجين من فورها بالمشروع، وقالت له:

– شرط أن نشاهدَ فيلمًا ونتناولَ العِشاءَ فقط!

[٤] المَدخل الشَمالي لمدينة بيروت.

فأجابَها وهو يحني رأسَه:

– سمعًا وطاعةً يا سُلطانة روجين.

وهكذا كان.

لبسَتْ روجين حلَّةً جذّابَة.. كأنَّها تواعدُ خَطيبَها.. فهي لن تذهبَ إلى سَهرةِ العرس المَزعومَة كيفما كان! واستقلَّت سيّارَة الأجرَة إلى الدَّوْرَه. ثمَّ دخلَت إلى الرَّدْهَةِ الخارجيَّة منَ السِّينما، وقبَعَتْ واقفةً في رُكنٍ تتطلَّعُ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ اليَسار، وتنظرُ في ساعةِ يدِها حوالي ربع ساعة. ثمَّ فجأةً! عَصبَتْ عَينَيها منَ الوَرَاء أناملُ قويَّة تفوحُ منها رائِحَةُ عطرٍ رُجوليٍّ لطيف. قالت من فورِها وهي تبتسم:

– غيث!

– ذكيَّة.. كيفَ عَرَفتِ؟ سألَها مُداعبًا. ثمَّ أضاف:

– كنتُ هنا قبلَكِ. واختبأتُ لأراكِ تشتاقينَ إليَّ.

ثمَّ قطعَ غيث تذكرَتين لكليهما، ودخلا لمُشاهدَةِ فيلمٍ رومنسيٍّ كانَ قدِ اختارَه غيث خصيصًا لهذه المُناسَبَة. وهناكَ في وَسطِ الظُّلمَةِ لم يستطِع إلاّ أن يُطلِقَ العِنانَ لثعالبِ أناملِهِ تتسلَّلُ إلى حظائرِ شَعرِها اللَّيلَكيّ الحَالك، وتدورُ سبّابتُهُ حولَ أطرافِ وَجهِها وحافَّةِ أذُنِها.. ثمَّ تَنزلِقُ إلى رأسِ أنفِها لتسبَحَ فوقَ شَفَتَيها وَذَقنِها الدَّقيق. عَضَّتْهُ روجين بإصبَعِهِ وقالت له:

– توقَّفْ عنِ اللَّعِب.

وفي قلبِها تقولُ له: "تابِع سَفرَكَ أيُّها السِّندبادِيُّ المُغامرُ الجَريْء".

ثمَّ انتهى الفيلم، وخَرَجا إلى مَطعمٍ قريب.. وتناولا سندويشات الشَاورما مع المشروبِ الغازيّ.. وثرثرا كثيرًا.. وضَحِكا كثيرًا.. ثمَّ استقلاّ سيّارة أجرَة وعادا إلى جونيه. أنزلَها تَحتَ الشَّجَرَة عندَ زاويةِ شارعٍ مُوازي لشارعِ بنايتِهم، فتابعَتْ هي إلى البيت، ومَضى هو ليَتسكَّعَ ما تبقَّى منَ السَّهرَةِ عندَ أصحابِه.

كانتْ مُداعباتُ غيث قدَّاحةً ناريَّةً أشعلَتْ جسَدَ روجين وجَعلتْ منه بركانًا. ولم يمضِ شَهرٌ منَ الزَّمانِ حتى كانا قد تطارَحا الغرام بالكامل.. في ليلةٍ مُقمِرَةٍ عَطِرَةٍ على سطحِ البناية. وهذه لن يستطيعا إخفاءَها بعدَ اليَوم! وعندَما لاحَظَتْ والدَةُ غيث بعد أشهر قليلة أنَّ الفتاة تسمُنُ وتدوخُ وتَتقيَّأُ أدرَكتِ المُصيبَة:

– أنتِ حامل يا روجين؟!

شدَّتْها بشَعرِها وصرَختْ بها:

– من هو؟ قولي لي مَنْ هو؟!

فتَمتمَتِ المِسكينةُ بصَوْتٍ خافِتٍ مُتقطِّع:

– غيث.. غيث يا سيِّدَتي.

وهكذا كانتْ نهايةُ مَلهاةِ مأساةِ روجين في منزل فارس الرَّاسي. غادَرَتْهُ ذاتَ صباحٍ إلى غيرِ رجعَة.. مَطرُودَةً باكيَة.. في أحشائِها جَنينٌ، وفي روْحِها قَهرٌ وَضَياع.

*****